أ.د.علاّل سنقوقة –جامعة الجزائر(2)

صورة متيجة من خلال كتاب: (الأمير عبد القادر)لـ: يوهان كارل بيرنت (وصف الطبيعة والتقاليد والعادات)

تعتبرُ منطقة "متيجة" من النّاحيةِ التاريخيةِ منَ المناطقِ الأولى التي تصدَّتْ للغَزو الفرنسيّ في أشهره الأولى ، فقد بيّنتِ المصادرُ التّاريخية أنَّ ابن زعمون كان من الأوائل المقاومين ، وقد ألحقَ خسائرَ كبيرةً بالجيش الفرنسيّ (معركة بورمون في 16جوان 1830)(1) ومثلما كانت حصنًا حصينًا أمام محاولات الأتركة والفرنسة ، برزت كقوّةٍ رمزيةٍ من خلال طرقِ تصويرها في كتابات الرّحالة والجنود الفرنسيّين و"اللفيف الأجنبيّ" .

وهي صورٌ مركّبةٌ منْ عناصرَ مختلفةٍ :الطبيعة والتّقاليد واللّهجات ووصف الحالة الاجتماعية من فَقْرٍ وأمراضٍ وهيمنةٍ استعماريةٍ ، وإذا كان هذا الخِطَابُ يَعطي للباحث صورةً عنِ الأوضاعِ في فتراتٍ مختلفةٍ من الاستعمار الفرنسيّ ،يؤسّسُ هذا الخطابُ أيضًا لنّسق منتظمٍ من المزالق الكولونيالية هو في الجملة خطابُ الاحتقار والكراهية والذمّ للإنسان الجزائري أو " العربي" كما تسمّيه لغة هذا الخطاب نفسه .

لا يذكر يوهان كارل بيرنت تفاصيلَ كثيرةً عن ميلاده ، ولكن يرجّح أنّه ولد بتاريخ 1812 وقد طُرد من جامعة هالّه بألمانيا عام 1833 ، وكان ذلك بعد أن شارك في مشادّةٍ بين الطّلبة وهو في حالة سُكر. قضى أسبوعين كاملين في السّجن، ولم تسمح له الإدارة بالعودة إلى مدرّجات الجامعة لهذا السبب (2). ويستشفّ من الكتاب الذي وضعه عن الأمير عبد القادر انّه كان متذبذب الرؤى، قريبا في تفكيره المشتّت من الفلسفة الوجودية، وزاد الشعور بالإخفاق والفشل في الحياة من معاناته ممّا دفعه إلى البحث عن سعادته في السفر هروبًا من

نظرة الوسط الذي يعيش فيه، فجال في أماكن عديدة من فرنسا وإنكلترا وبلجيكا وأخيرا قرَّر الانضمام إلى الفرقة العسكرية الأجنبية الأوروبية(أو اللفيف الأجنبي) وقد أرسل إلى الجزائر عام 1835 وبعد تدريبات ميدانية قام بها، جنّد في الأماكن المتقدّمة نواحي بوفاريك ومدينة البليدة ، بغرض المشاركة في اللفيف الأجنبي الذي أسّسه لويس فيليب عام 1831 وكان من أهدافه المساعدة في السيطرة على الجزائر واتّخذ سيدي بلعباس مركزا له وكان مكوّنا من جنسيات مختلفة :ألمانية ،إيطالية،إسبانية ،بولندية ..وقد شارك الفيلق الذي انتسب إليه يوهان كارل بيرنت في الحرب الإسبانية بنحو أربعة آلاف جندي التي دامت خمس سنوات إلى جانب الملك كارلوس عام 1835 ولم يبق منه بعد انتهاء الحرب سوى 500 جندي وكان يوهان محظوظا لأنّه أسر وبقي طيلة المدّة تلك بين القبائل العربية الجزائرية (3).

وفي يوم 16 جوان 1835ذهب رفقة جنديين ألمانيين للنزهة في سهول متيجة، نواحي بوفاريك فوقع في الأسر ،فأخذه فرسان عرب إلى المدية ثم إلى معسكر وعمل في جيش الأمير ترجمانا وهو ما مكّنه من التعرّف على جوانب عميقة من حياة الأمير عبد القادر كما سنحت له الظروف في أن يطّلع على طبيعة الحياة الاجتماعية والعقلية والأمنية والأخلاقية لدى الجزائريين حينذاك ،كان بيرنت يعرف باسم عبد الله بعد أن كان أحمد ولكنّ الفتى الشجاع يظل يحلم بالفرار من معسكر الأمير وهو ما نجح فيه بعد تردّد وخوف فالتحق بالمعسكر الفرنسي بوهران ثم عاد بتاريخ 6 أفريل 1838 إلى الجزائر العاصمة ليكمل عمله العسكري الذي جاء من اجله وبعد عام فقط يقرّر العودة إلى بلده (ألمانيا) أي في 6 أفريل عام 1839وقد كان ليون روش من أصدقاء بيرنت .

تبدو الدوافع الحقيقية التي دفعت يوهان كارل بيرنت إلى السفر إلى الجزائر شخصية متعلّقة بحالته النفسية المضطربة ورغبته في تغيير الأجواء وأحيانا يظهر لنا في نقله لبعض مشاركاته في حروب الأمير عبد القادر رغبته الملحّة في الموت ،

كطريقة للتخلّص من عذاب النّفس ربّما وقد أظهر شجاعةً كبيرة أو بدت كذلك لأتباع الأمير فوثقوا به ودعّم هو هذا الشعور فيهم بتظاهره بالإسلام ، فقد كان لا يتأخّر عن صلاة أو صيام أو غير ذلك مما يعزّز صورة الرجل الصادق الأمين لدى جيش الأمير ، ولا غرو أن تقريبه الأمير إليه، مبعثه إجادة يوهان كارل بيرنت لعدد من اللغات ومنها بشكل خاصّ اللغة الفرنسية والإسبانية والإيطالية ثمّ لاحقا تعلّم اللغة العربية ويورد كلّ هذا في مدخل كتابه حيث يقول :" في خريف سنة 1833 حكم عليَّ في جامعة هالّه بتهمة المشاركة في مشادّة وقعت في إحدى الحانات بقرية بسندروف بالسجن مدّة أربعة عشر يوما مع الطّرد. وقد كانت هذه الحادثة سببا في اضطراب أوضاعي إلى درجة أنّني قررت بع ما ترددت عدد من المرات إلى مدينة برلين ، البحث عن سعادتي في الخارج ورددت مع نفسي المثل اللاتيني القائل : وطني هو البلد الذي أجد فيه سعادتي ..."(4) ويسهب الكاتب في ذكر تفاصيل الرّحلة التي قادته إلى الجزائر رفقة 60 رجلاً، كانت لهم الرّغبة نفسها بعد ثلاثة أيام من السير في البحر من مدينة طولون وبعد أيام من التدريب على السلاح تمّ نقل المتطوّعين إلى الجبهة الخارجية في الدويرة وبوفاريك التي كانت قاعدة عسكرية فرنسية .

يتوقّف يوهان كالربيرنت على اسم مدينة بوفاريك فيقول :" وكلمة بوفاريك تعني مكانا في السهل الكبير من جبال الأطلس ،كان قد اتّخذ قرار بإقامة معسكر حصين فيه ."(5)

وفي هذا السّياق يبدي هؤلاء الرّجال الستُّون، القادمون إلى العمل العسكري – على لسان المؤلّف– تذمّرهم من المعاملة التي قوبلوا بها أثناء تواجدهم في المعسكر يقول :" كان علينا أن نجرف الأرض وننقل الحجارة والدعائم ، ونقيم الحراسة عليها ،ونتصارع بعد العمل مع رؤسائنا جميعا من العرّيف إلى النّقيب من أجل الحصول على راتبنا القليل أو حتّى من أجل الحصول على الطّعام والشّراب، وذلك ما جعل حتى أكثرنا قناعة ومسالمة يتمنون لو انهم بقوا في أوطانهم ولا أريد أن

أتحدّث بتفصيل عن السّمعة السيّئة للفرقة الأجنبية ،وحسبي أن ألاحظ ،على الرّغم مما خبرته من أمور مزعجة وأشياء مرعبة ،أنّني على يقين من أنّ العناية الإلهية هي التي انتزعتني من بين صفوف حثالات أوربا بأسرها "(6)

بالرّغم من تأفّف يوهان كارل بيرنت من ظروف العمل في المعسكر في الفرقة الأجنبية ببوفاريك إلاّ أنّه كان مبهورا بالطبيعة ،مهووسا بالكشف والبحث والتّجوال في أنحاء السّهل الكبير ، لقد بدأ يحلم بالخروج إلى تلك الجبال والسهول والقيام ببطولات كما يقول يوهان :" لقد ألبس الربيع المروج والحقول أفخر أثوابه ،فتزيّنت الأرض بآلاف الأزهار التي تَضُوع بأزكى الروائح والعطور وكانت السماء تضحك بصفائها فوق رؤوسنا. وكانت الحشائش والأعشاب الخضراء قد انتشرت فوق السهل ،وكان على الفرقة الأجنبية أن تقطع تلك الحشائش و الأعشاب وتقوم بتجفيفها . وكان هذا يتمّ بعيدا إلى حدّ ما عن المعسكر ،ومع ذلك لم يحدث أيّ حادث على الإطلاق ."(7)

تعتبر الأيام الأولى من شهر ماي من سنة 1835 الفترة الحقيقية التي التقى فيها الشّاب الهائم ، العبثي إلى حد ما بمنطقة متيجة وقد بدت له ساحرة لا نظير لها يقول، واصفًا أيضا جبال الأطلس ومدينة البليدة :" كنت أذهب في كل مساء تقريبا لأتجول خارج المعسكر ،أحيانا بمفردي وأحيانا أخرى مع آخرين ،أتأمّل جبال الأطلس القريبة أو مدينة البليدة الجميلة وكثيرا ما كانت لي رغبة قوية في معرفة شيء من التفاصيل عن تلك المناطق وعن سكّانها . لذلك شعرت بالسعادة عندما علمتُ أنّنا سنقوم قريبًا بحملة على البليدة ومناطقها الجبلية وبدأت أحلم بالأعمال البطولية التي ستكون لي هناك ..."(8)

يمكننا أن نوزّع موضوعات الكتاب على نحو تقريبي على الشّكل الآتي:

-وصف الطبيعة وتوظيفها للتعبير عن أحوال الذات

- وصف أحوال المأكل والمشرب(الطعام) وأماكن الإقامة والترحال والأمراض وسائر متعلّقات الحياة الاجتماعية .

-وصف وصف الطرق والمعابر ووسائل النقل

- وصف التقاليد والأعراف

بالنّسبة للطبيعة، نلاحظ تركيز يوهان كارل بيرنت على مجموعة من العناصر المادية الظاهرة مثل السّهول الكبيرة المخضرّة وجبال الأطلس ، فضلاً عن تركيزه على مجموعة من الأشجار المثمرة مثل **التين** الذي كان يقدّم له من قبل القبائل عندما أسرته خيالة الأمير عبد القادر،زيادة عن ذلك يورد إشارات إلى كثرة **الوديان والمجاري والصخور** يقول ناعتًا رحلتَه بعد القبض عليه :" واصلنا السير بخطى حثيثة **فوق مسالك لا تكاد العين تراها** ،طورا فوق الصخور الجرداء ،وطورا آخر عبر **الوديان الجميلة الغزيرة المياه** ،وقد كانت كلّها **عامرة** أيضا ،ولا داعي إلى القول أنّ الناس كانوا في كل مكان يسرعون من الأكواخ لرؤيتنا ،إلا أنّ عليّ أن ألاحظ أنّهم لم يسيئوا معاملتنا على أيّ نحو كان.وعند الظهيرة توقّفنا عند بعض الأكواخ تحت أشجار**التين** الظليلة "(9) وممّا يلفت النّظر أيضا اهتمام الكاتب **بالينابيع والعيون** الجارية **والجداول** حيث يعطي أهمية كبيرة للماء خاصة لصورته الطبيعية ،أي لحركته ومنظره وسط الأشجار وبين الأكام والصخور وهو ما يدلّ على تعلّق يوهان كارل بيرنت بالقيمة الجمالية للمكان المتيجي.

بعد ترقيته إلى طبّاخ فهوة كما يقول وقد كان حارس إسطبل من قبل ، يصف عمله على النّحو الآتي :

"عندما يرتفع صوتُ الآذان من المنارة قبل طلوع الشمس ،أنهض من فراشي، الذي كان يتكوَّن من عددٍ من جلود الغنم والأغطية الصّوفية وأجلبُ الماء من عين قريبة وأشعل النار في الموقد وأعدّ كل شيء قبل وصول الخليفة "(10)

وبالرّغم من اختلاف المكان إلا انّ الظاهر أنّ طبيعة الحياة الاجتماعية كانت متشابهة بين متيجة والمدية ، فالأفرشة والمراقد كانت بسيطة مأخوذة من جلود الحيوانات كما انّ التدفئة والطبخ كلّها كانت تتمّ عن طريق الحطب ،وهي صورة

تكشف عن ثراء سهل متيجة وما جاوره بالخيرات الطبيعية من حيوانات وأشجار وخضراوات مختلفات وهي حقيقة تاريخية أيضاً(11).

لقد لاحظ المؤلّف قبل أسره من قبل رجال الأمير في بوفاريك اخضرار سهل متيجة لأنّ متيجة كانت قبل الغزو الفرنسي أرضا زاخرة بالخيرات فقد اشتهر السهل –على حدّ تعبير أبي القاسم سعد الله–:" بإنتاج البرتقال وكان إنتاجه يسدّ حاجات العاصمة وقليلا من إنتاجه فقط كان يصدّر إلى الخارج .وكان سهل متيجة يحتوي على عدّة مزارع كبرى للدولة وأخرى للخاصّة .وتذكر بعض المصادر أنّه كان للدولة حوالي 13مزرعة في متيجة يحتوي كلّ منها على 60 أو 80 زوجا من البقر وهي التي كانت توفّر الحليب والزبدة والجبن إلى العاصمة "(12)

وعندما وصل إلى مدينة خميس مليانة أخذ يصف جوانب أخرى متّصلة في الحقيقة بما رآه في بوفاريك والبليدة إذ يقول :" ومليانة مدينة جبلية ، يستغرق الصعود إليها من السهل حوالي ساعتين . كان هناك جدول جارف يقطع الطريق إليها عدّة مرات ،وهذا الطريق يزداد وعورة وضيقا كلّما اقترب الإنسان منها أكثر ، وفي النهاية، يمرّ عبر صخور بارزة . ويرتفع الجبل فوق المدينة عاليا وقد لا مست السحب قمّته وتنبع منهم عيون صافية ،تزوّد مدينة مليانة بما يكفي من المياه العذبة ، التي تحول منها إلى مجارٍ تسقي المناطق الواقعة في أسفل الجبل وما فيها من بساتين الكروم الجميلة "(13)

وفي الملحق (شروح للعادات والتقاليد والتعابير اللغوية وغير ذلك عند عرب شمال إفريقيا) أورد فهرسا لمجموعة هائلة من الكلمات المرتبطة بالطبيعة وهي ذات صلة بطبيعة الأشجار والنبات في متيجة ومنها مثلا :تشينة(البرتقال)،دالية (كرمة)،دشيشة(فريك)،روينة(دقيق)،زرودية (الجزر)،شادي(قرد)،شتا(شتاء)،كرموس(التين)، الكروش(بلوط أخضر)، الكيف(الحشيش) ...(14)

وبالنّسبة لأحوال الناس الاجتماعية ، يلاحظ على خطاب يوهان كارل بيرنت تأكيده على إبراز ثلاثة أنواع من العرب الذين يسمّيهم "**البدو**" ،وتأتي الطائفة الأولى وهي تلك التي اتّخذت الأكواخ ملجأ لها وعادةً ما يأتي ذكرها في كتابه ، عندما يخرج من المناطق الآهلة إلى الأماكن الجبلية البعيدة .

أمَّا الطائفة الثانية فهي تلك التي تتخذ الخيام وسيلة لها للإقامة والتّرحال وهي مجموعاتٌ من القبائل التي لا تستقرُّ في مكانٍ بعينه ، كما أنّ الخيم وسيلة للمسافر للمبيت يأخذها معه على **الحمير والبغال** وما شابه ذلك لاستغلالها في النّوم والمبيت أثناء السفر.

أمَّا الطائفة الأخيرة، فيمكن اعتبارها من الأعيان ،على نحو ما كان عليه الحال في بيت الخليفة سيدي البركاني بالمدية الذي استقبل يوهان كارل بيرنت بعد الأسر ووفّر له مجالاً للعمل لديه بوصفه معدّ قهوة الخليفة والضيوف الذين يأتون إليه بأجر قدره ثمانية دولارات إسبانية ،إذ ينقل لنا بأنّ بيت الخليفة مؤثّث بالزرابي وفيه الآرائك التي يجلس عليها الخليفة ومريدو السلطان عبد القادر (15).

كما يعطي يوهان أهميةً خاصة لبعض الأطعمة، على نحو ما نجده يفصّل الأمر في "الطّعام" الذي يكون عادة في العشاء ،كما يعتقد الكاتب ، فقد استحضر كيفية إعداده ويلاحظ أنّه لم يستطع نقل الكيفية الصحيحة بدقّة، إذ اعتقد أن القدر التي يوضع فيه الماء يوضع فيها اللبن واللحم ويردف قائلا بعد وصفه لوصفة إعداد الكسكسي العربي بالقول :" هذا هو عشاء العربي اليومي،بل المسلم ،وقد كان له دوره في القرآن ،حيث وعد النّبي العربي بطعام في الجنّة لا مثيل له (16)".

ولا غرابة في ذلك، فإنّ يوهان يُظهر في مواضعَ كثيرةٍ من الكتاب، حقده على الجزائريين وازدراءه لبعض تقاليدهم، إمّا عنصريةً منه أو نوعا من الانتقام الرَّمزي منهم أو هو جهل تامّ بالدين الإسلامي وعدم اطّلاعه على مراجع علمية مهمّة

في هذا السّياق عن الإسلام وهو قد يكون السبب الحقيقي الذي جعل يوهان كارل بيرنت يبقى على مسيحيته بالرّغم من إعلانه ظاهريا إسلامه للأمير عبد القادر والقبائل العربية التي زارها في المدية وملیانة ومعسكر والبليدة .

لعلّله من المناسب أن نورد بعض الملفوظات التي دلّت على نظرة الكاتب للعربي (الجزائري) وهي نظرة احتقارية تكشف عن نزعة كولونيالية لدى يوهان كارل بيرنت فمن الصور النمطية التي يكرّسها خطاب الرحلة كون العربي خبيثا (العرب خبثاء) (17) وأنّ العربي عديم الشجاعة والجرأة، يستكين مباشرة للأعداء ومن ذلك قوله في ملاحظة سلوك العربي في معرض حديثه عن الاستحمام والاغتسال في الحمّامات عند العرب ،:" وسيخطئ من يظنّ أنّه يستطيع من خلال عادات النظافة عند العرب أو من خلال العبارات الجميلة ،التي يكثر استعمالها في لغتهم ،أن يصل إلى نتيجة تتعلّق بجوانبهم الأخلاقية .فالعربي يبدأ كل شيء،ومن ذلك العمل السيّء ببسم الله بحيث إنّه ينسى التفكير في جمال هذه العبارة "(18)

فقد بقي سخط الكاتب على حظه التعيس الذي جعله في يدي العرب ساكنا في نفسه وهو يعبّر عنه في مواقف مختلفة حتى وهو يخدم ترجمانا للأمير عبد القادر فهو لم يكن راضيا عن الفرقة الأجنبية التي انتسب إليها ولا يتوقّف عن نقد سلوكها وطريقة إدارة شؤونها بل يعتقد أنّه :" ليس هناك من أوروبي سديد الفكر يستطيع الحياة بين أفراد أمة تتسم بالقسوة وفقدان الروح المعنوية ويسودها حكم مستبدّ ،إرادته هو وحده هي القانون السائد"(19)

ومن الأيقونات المهمّة التي اعتبرت مقصدًا للتجّار من مناطق متيجة وملیانة ومعسكر :" سوق أسبوعية يقصدها القرويون في اليوم المحدّد من جميع أنحاء المنطقة ،كما يقصدها أيضًا تجّار المدن المجاورة ،ومع أنّ ما يوجد من النقد في إفريقيا الشمالية أقلّ مما يوجد منه في أوروبا ،فإنّ المرء ليرى أحيانا مبالغ محترمة في مثل هذه الأسواق"(20) ويستدلّ على طريقة تعبيره أنّ هناك أسواقًا أخرى في بقية المدن المجاورة ، ولكنّ الكاتب لا يتوقف دون الإشارة إلى ظاهرة العنف بين

القبائل وذلك بسبب انتشار السلاح ويحصر الصراعات في "سكان الجبال وسكان الصحراء" الذين لا يخضعون لسلطة واحدة وتختار عندهم كل قبيلة رئيسها وتحرص على جمع الإتاوات لكي تغني بها حساب غيرها ، كانت تقوم بينهم نزاعات مستمرّة ،تكون فيها القبيلة ضدّ القبيلة والقرية ضدّ القرية بل قد يحدث أن يكون نصف القرية ضدّ نصفها الآخر"(21)

كما يقول الكاتب نفسه، ويتبيّن من كلامه أنّ التّجارة كانت تعتمد على النّقد ، وقد ذكر الكاتب نوعين من النقود الأوّل الريال والثاني الدولار الإسباني (للمراجعة تاريخيا)

الأحداث والوقائع الكبرى :

يمكن أن نذكر –بحسب التسلسل السردي الذي يذكره المؤلّف في الكتاب– حدثين هامّين ارتبطا بسهل متيجة من النّاحية العسكرية ويكشفان عن حضور قوّة الأمير عبد القادر بواسطة خليفته على المدية بالخصوص وانتشار رجاله في مختلف مناطق **متيجة** ومن ناحية أخرى يكشف الحدثان معا عن التقدير والاحترام الذي تكنّه القبائل للأمير بالرغم من أنّها خارجة عن سلطته ولا تدفع له الضرائب على نحو ما كان عليه الحال مع القبائل الأخرى .

الأوّل اعتقال يوهان كارل بيرنت في بوفاريك من قبل رجال الأمير ،وهو حدث لم يفصّل فيه الكاتب كثيرا ولكنّه يكشف عن حضور رجال الأمير قريبا من معسكرات "العدو" وسوء التّقدير الذي كان لدى هؤلاء لقوّة الأمير .

الثاني هو متعلّق بقبيلة حجّوط وهو تسليمها الأسير موريس للأمير عبد القادر كانت قد قبضت عليه قرب الجزائر وكان "هذا الأسير من التجار المعروفين في مدينة الجزائر ،أسره رجال من قبيلة حجوط المترصّدة عندما تعدّى الخطوط الفرنسية لدراسة التربة في داخل البلاد ولم تكن هذه القبائل مرغمة على دفع الإتاوة للأمير عبد القادر ومع ذلك كانوا يقدرون فيه دفاعه عن دينهم ضدّ

المسيحيين ويقيمون معه علاقات حميمة ،ولذلك أرسلوا إليه هذا الأسير وقد عومل معاملة حسنة وسمح له باستلام الرسائل وكتابة الردود عليها."(22)

وأما الأحداث الأخرى التي ميّزت قصة يوهان كارل بيرنت فيمكن إضافة محاولة هروبه من المدية ثمّ محاولة هروبه من معسكر عندما كان مع الأمير عبد القادر وهو ما نجح فيه في الأخير والتحق بوهران ثمّ عودته إلى الجزائر العاصمة حيث نزل أوّل مرّة (أي في منطقة البليدة وبوفاريك) ليواصل الخدمة العسكرية التي نذر ، نفسه لها بتاريخ 6أفريل عام 1838 وقد أرسله الجنرال روليير، هذه المرّة إلى بئر خادم ليعمل حارسا في باب معسكر بئر خادم ،هناك التقى زميله القديم مصطفى الذي فرّ هو الآخر من معسكر الأمير بحصان أهداه له الأمير نفسه ولكنّه امتطى صهوة الجواد مدّعيا تجريبه ولكنّه "أخذ طريقه من المدية إلى البليدة في ليلة واحدة وسلّم نفسه للفرنسيين في بوفاريك"(23)

ومن الطَّريف أنّ مصطفى هذا، يزجّ به في السجن ثمّ يُخيّر بين الإعدام أو الخدمة العسكرية في الفرقة الأجنبية ويعامل معاملة سيّئة لذلك يتمنّى العودة إلى سهل متيجة حيث كان عاش ثلاث سنوات في بيت الخليفة بن سالم (24) ويردف قائلا :"عشت عنده ما يقرب من ثلاث سنوات ،لقد أعجبتني الحياة هناك أكثر مما أعجبتني في الفرقة الأجنبية "(25) ليختفي بعد ذلك من معسكر بئر خادم وما من شكّ في أنّه فرّ إلى الخليفة القبائلي بن سالم .

أمّا الحدث الأخير فهو عودة يوهان كارل بيرنت إلى أوربا، بتاريخ 6أفريل عام 1839 ويختتم كتابه بالحديث عن كاتب الأمير عبد القادر الفرنسي ليون روش ،حيث ينفي خبر الجرائد بأنّ الأمير أمر بقطع رأسه إذ يؤكّد أنّه التقاه في ألمانيا بعد خمس سنوات من الغياب .

ومهما يكن من حال ،فإنّ كتاب يوهان كارل بيرنت ليس كتابًا في التاريخ، كما يصرّح هو نفسه في المقدمة ، بل هو حكايته أو سيرته خلال خمس سنوات

قضّاها خارج الوقت كما يقول ، شعر فيها بمعاناة كبيرة لم يعشها أحد غيره وهو يحدد أسباب تأليفه للكتاب في جملة من الأسباب منها:

–رغبته في الاستجابة لطلب المعارف والأصدقاء الذين طلبوا منه وصف رحلته في "إفريقيا الشمالية ".

– اطلاع الناس وتعريفهم بإفريقيا لأنها أرض غير معروفة

– التعريف بشخصية الأمير عبد القادر ،هذه الشخصية التي أصبحت بعد ذلك مشهورة وذات شان عالمي لأنه كان قريبا منها .

– خدمة بلده أو المصلحة العامة كما قال وهنا –بلا شكّ– يظهر الميل الفردي لدى الكاتب وهو ما يبرّر بعض تصوراته عن الأهالي ، ويؤكّد يوهان كارل بيرنت أنّ هدفه من هذه القصّة هو "أن ألزم نفسي بقول الحقيقة في كلّ الأمور سواء تعلّق الأمر بي شخصيا أو بغيري...وما يزال هنالك في إفريقيا (الجزائر) أو في فرنسا من يشهد بصحّة ما أرويه أو كذبه وبناء على ذلك، فإنّه لمن المجازفة بمكان أن أقدّم هنا معلومات مغلوطة "(26)

لقد لا حظ المترجم الدكتور أبو العيد دودو أنَّ بعض التفاصيل الدّقيقة التي رواها المؤلّف عن الأمير مثلا لا يمكن التحقّق منها لغياب أدلّة وشواهد عليها وهي أمور تتصل بحياة الأمير من مأكل ومشرب وطرق تفكيره وبعض سلوكه مع الفرنسيين أو الكراغلة أو غيرهم من القبائل ولكنّ بعض الأحداث الكبرى تدلّ على صحّة ما رواه يوهان كارل بيرنت في كتابه هذا.

هل يمكن اعتبار ما كتبه هذا الجندي في اللفيف الأجنبي من قبيل التاريخ ؟ طبعا لا يمكن القول بانّ ما ورد في سيرة هذا الجندي تاريخا دقيقا مفصّلا ، يمكن الاطمئنان إليه لعدة اعتبارات .

ومنها، بشكل خاصّ، انخراط كارل يوهان بيرنت نفسه في صراع تاريخي ، وبالرَّغم من أنّه كان ساخطا على "اللفيف الأجنبي" ونادمًا على السنوات التي ضيّعها من عمره . كما كان من جهة أخرى كارها للعرب إلاّ أنّنا نَلمَسُ في لغته ميلاً إلى

أمّته الأوروبية من خلال اعترافه هو في المقدمة بأنّ من الأسباب الداعية إلى تأليف الكتاب هي "إفادة أمّتي" كما لا نستبعد أن تكون من الأسباب الخفية أيضا التي لم يعلن عنها الكاتب البحث عن الشهرة ،خاصة بعدما أصبح الأمير عبد القادر الحسني الجزائري شخصية إنسانية وعالمية مثيرة للجدل أيضًا .

وعلى كلّ حال فإن كثيرا من الأوصاف التي جاءت في ثنايا قصة يوهان كارل بيرنت عن متيجة ،صحيحة وخاصة فيما يتعلّق بجانب وصف الطبيعة التي حبى بها الله هذه الأرض وهو ما تعزّزه آراء حمدان خوجة عندما يقول معلّلا سبب تمسّكه بالأرض بقوله :"لأنه قريب من المدينة ولأن فيه مواشي ومزارع غير بعيدة عن ضواحي الجزائر التي أزرع فيها القطن وهي زراعة لا يعرفها العرب "(27) ويرى أنّ معاش سكّان هذا السهل من وادي جرّ ومليانة .

وما أورده بعض الرحّالة عنه أمثال الرحّالة الألماني العالم هابنسترايت إلى الجزائر عام 1732حيث يعتبر سهل متيجة من "أجمل السهول" التي رآها في حياته ويرى أنّه غنيّ جدا "بالحنطة وباقي أنواع الحبوب وترعى به قطعان من المواشي لايمكن عدّها"(28)

المصادر والمراجع:

1-ينظر أبو القاسم سعد الله:محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث،بداية الاحتلال،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ،الجزائر،ط3، 1982، ص86

2-يوهان كارل بيرنت: الأمير عبد القادر،تر: أبو العيد دودو،دار هومة للنشر، الجزائر ،ط1، 2012،ص26

3-المصدر نفسه،ص200

4-المصدر نفسه،ص26

5-المصدر نفسه،ص26

6-المصدر نفسه،ص27

7-المصدر نفسه،ص27

8-المصدر نفسه،ص27

9-المصدر نفسه،ص29-30

10-المصدر نفسه ،ص41

11-أبو القاسم سعد الله:محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث(بداية الاحتلال)،ص521

12-المرجع السابق، ص152

13-يوهان كارل بيرنت : الأمير عبد القادر ،ص57،58

14-المصدر السابق،ص210

15-المصدر نفسه،ص34

16-المصدر نفسه،ص35

17-المصدر نفسه،ص173

18-المصدر نفسه،ص210

19-المصدر نفسه،ص180

20-المصدر نفسه ،ص46

21-المصدر نفسه،ص47

22-المصدر نفسه،ص79

23-المصدر نفسه،ص200

24-الخليفة بن سالم المذكور هنا ،هو بحسب سياق النص خليفة الأمير عبد القادر على المدية

25-المصدر نفسه،ص201

26-المصدر نفسه،ص24

27-حمدان بن عثمان خوجة : المرآة، تر: محمد العربي الزبيري،منشورات المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، الجزائر ، ط1، 2006
،ص50

28-رحلة العالم الألماني ج.أو.هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس(1145هـ-1732م)، تر:ناصر الدين سعيدوني،دار الغرب الإسلامي ،تونس،(د.ت)،ص54-55